تجليات الحرية في الرواية المغربية المعاصرة

حسن أوريد نموذجا

الأستاذ عبد العزيز شكود
جامعة عبد المالك السعدي
كلية الآداب والعلوم الانسانية – تطوان
المغرب

المقدمة:

إن الحديث عن مفهوم الحرية في الفن الروائي هو حديث متعدد الأوجه ويحتاج إلى رسم حدودها الواضحة قبل مناقشة آثارها وتطورها، على اعتبار أنها متضمنة في فعل الكتابة الروائية ومتحدة معها. وأولئك الذين يحاولون إيجاد تعريف دقيق للحرية يلاحظون الاجماع على أهميتها من ناحية، ومن ناحية أخرى: "إنه حق إنساني مطلق، لا يمكن أن تحدده القوانين أو يخضع لقيود من الجانب الآخر؛ ان استقلالية الفكر شرط للتقدم في كل علم وكل عمل".[1] يتضح لنا من خلال هذا القول الاختلاف في الوصول إلى معنى كلمة (الحرية) واسع جدًا، ويكاد يكون قديمًا قدم الوجود البشري. فمنذ أن وجد الإنسان على وجه هذه الأرض، بدأ بالسعي نحو تحسين وضعه والارتقاء بإنسانيته بشكل دائم.

وبدأ في تحقيق ذلك عندما أعلن الثورة والتمرد على قيود الطبيعة من حوله، وسعى للسيطرة على الواقع الخارجي، وتطويعها لخدمته مستغلا القدرات الهائلة التي يمنحها العقل البشري لتحقيق هذا التحرر، ولولاها لبقي الإنسان حتى يومنا هذا في الكهوف، عالقا مسجونًا في عوالم الأسطورة، لا يتحرك ولا يتحرر[1]، لا يخلق ولا يبدع. ان هذه الحضارة المبهرة بمثابة النتيجة الحتمية لرغبة الإنسان في الانعتاق والحرية. ويمكن القول ان قيمة الحرية الإنسانية الفردية تتضاعف عندما نعلم أنها تتحول إلى حرية جماعية، والتي بدورها تؤدي إلى حرية شاملة تعني الجميع .. وذلك لأن: "حرية الوطن من حرية الإنسان الذي يعيش داخله، ولا يصون استقلال هذا الوطن إلا بعد الحفاظ على استقلال من يدافع عنه" وعلى الرغم من الإجماع القديم على إطلاق المبدأ الوجودي (تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين)، كمحاولة لحصر منطلقات وحدود حرية الإنسان؛ إلا أن العديد من الدراسات والبحوث المختلفة حاول فتح افاق الحرية على مجالات متعددة. "فالحرية مفهوم عام وتجريدي، سياسي واقتصادي وفلسفي وأخلاقي له معانٍ متعددة ومعقدة، يتطلب كل منها مستوىً معينًا من التحديد والتعريف "[2].

وبناء على ذلك يمكن تقسيم هذه الدراسة الى مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم الحرية لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تجليات الحرية في روايات حسن أوريد.

1

المطلب الأول: مفهوم الحرية لغة واصطلاحاً.

أولاً: مفهوم الحرية لغة:

الحرية في الأصل مأخوذة من لفظ (الحر) ، بمعنى الخالص من الاختلاط بغيره، فالحر من الرمل الخالص من الاختلاط بغيره؛ أي: من الشوائب، والحر من الرجال الخالص من الرق، وهو الذي لم تتملكه الصفات الذميمة كالحرص والشره على المقتنيات الدنيوية، بمعنى أنه مسيطر على نفسه من أن تتبع هواها، فيتحلى بالمعاني السامية، والأخلاق الفاضلة[3]. وقيل في المصباح المنير: (الحر بالضم من الرمل ما خلص من الاختلاط بغيره، والحر من الرجال خلاف العبد، مأخوذ من ذلك لأنه خلص من الرق وجمعه أحرار، ورجل حر بين الحرية، والحرورية – بفتح الحاء وضمها –... ويتعدى بالتضعيف فيقال: حررته تحريراً إذا أعتقته، والأنثى حرة، وجمعها حرائر على غير قياس)[4] .

وهي لغة من " حر يحر حراراً إذا عتَقَ، وصار حرا والاسم: الحرية، والحر: نقيض العبد، والجمع أحرار وحرار. والحُرة نقيضة الأَمة، والجمع حرائر. وتحرير الولد: أن يفرده لطاعة الله عز وجلّ وخدمة المسجد. والحر من النّاس: أخيارهم وأفاضلهم. وحرية العرب: أشرافهم. والحر من كل شيء: أعتَقُه، وفرس حر: عتيق، وحر الفاكهة: خيارها. والحر: كل شيء فاخر من شعر أو غيره. وحر كل أرض: وسطها وأطيبها. والحرة والحر: وقد وردت الحرة صفة للنّفس في كثير الطين الطيب. وحر الوجه: الخَد، والحرة: الوجنة "[5]،من أشعار العرب، كما في قول سحيم عبد بني الحسحاس:

إنْ كنتُ عبداً فنفسي حرة كرماً أو أسودَ اللون إنّي أبيض الخُلُق

وجاءت لمعنى استقلال الإرادة وعدم الخضوع لسلطان الهوى، كما في قول أحد الشعراء:

وترانا يومَ الكريهة أحراراً وفي السلمِ للغواني عبيداً

ثانياً: مفهوم الحرية اصطلاحا:

هناك تعريفات مختلفة للحرية، بمفاهيم وخلفيات ثقافية مختلفة.

1- فهي لدى الفقهاء ضد العبودية والرق[6]

2- ولدى الصوفية هي: (أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات) [7]

ويقول الشريف الجرجاني: (الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة الخروج عن رق الكائنات، وقطع جميع العلائق والأغيار، وهي على مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات؛ لفناء إرادتهم من إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار؛ لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار) [8]

3- وفي الإطلاق الحديث: الحرية تعني استقلال الإرادة، وفي تعبير طاهر بن عاشور هي: (عمل الإنسان ما يقدر على عمله حسب مشيئته، لا يصرفه عن عمله أمر غيره) أو: (فعل الإنسان ما يريد فعله دون مدافع بمقدار إمكانه).

ويقرر بهذا المعنى بالذات أنه لم يرد في اللغة العربية، لكن العرب استخدموا الكلمات القريبة منها ككلمة (الانطلاق والانخلاع من ربقة التقيد).

ويرى أن استخدام الحرية بهذا المعنى كان معروفاً في أوائل القرن الثالث عشر الهجري بعد ترجمة كتب تاريخ فرنسا وثورتها التي حدثت عام 1789م على هذه المفاهيم[9]

وهي – عنده – بهذا المعنى: (حق للبشر على الجملة لأن الله لما خلق للإنسان العقل والإرادة، وأودع فيه القدرة على العمل فقد أكن فيه حقيقة الحرية، وخوله استخدامها بالإذن التكويني المستقر في الخلقة...) [10]

٤– يمتلك الفلاسفة تعريفات متعددة وفقًا للمدارس والطوائف الفلسفية التي ينتمون إليها – ولعل أهم التعريفات هي: (حال الكائن الحي الذي لا يخضع لقهر أو غلبة، ويفعل طبقاً لإرادته وتصدق على الكائنات الحية جميعها من نبات وحيوان وإنسان).[11]

ومن تعريفاتهم أيضاً أنها: (ملكة خاصة تميز الإنسان من حيث هو موجود عاقل يصدر في أفعاله عن إرادته هو لا عن إرادة أخرى غريبة عنه)، أو هي: (القدرة على الاختيار بين عدة أشياء، أي حرية التصرف والعيش والسلوك حسب توجيه الإرادة العاقلة).

المطلب الثاني: تجليات الحرية في روايات حسن أوريد

الحرية في روايات حسن أوريد هي إثبات حقيقة واضحة مفادها القدرة الخارقة الفرد على تحقيق الانعتاق من مختلف الأغلال التي تعيق تحرره. ويعرّف حسن أوريد الحرية بشكل عام في رواياته على أنها خاصة بكائن لا يخضع للإكراه ويعمل دون قيود، وفقًا لما تمليه إرادته وطبيعته. كما أن هناك حريات سياسية، فكرية، اجتماعية، وهي عبارة عن الاعتناق الارادي للفكر والسلوك في مختلف تجلياته وتأتي الحرية أيضًا بمعنى مناهض للحتمية، مما يعني أن عمل الشخص ناتج عن إرادته. هذا هو المعنى النفسي والأخلاقي. والحال: ماهي مظاهر الحرية في المتن الروائي لحسن أوريد؟ وكيف استغل السارد النص الروائي للتنظير لمفهوم الحرية وتجسيدها بمختلف مظاهرها؟

أولاً: رواية" سيرة حمار":

غالبًا ما يتخيل الناس الحرية على أنها تحرر من أغلال السجن والقمع والاعتقال فقط، غير ان هذا العمل الروائي سيبن لنا أن القيود قد تكون صنعا ذاتيا اختياريا، وهذا ما سنكتشفه في هذه الرواية، ووفقًا لهذه المعاني الاصطلاحية والواقعية تظهر الحرية في عدة أشكال في رواية "سيرة حمار". هذا البيان في حد ذاته لا يعني أي شخصية إيجابية أو سلبية. ومن الممكن تتبع أثر مظاهر الحرية حسب الدلالات الاصطلاحية السابقة في عدة شخصيات في الرواية، رئيسة كانت أو ثانوية أو عابرة.

وهناك حوار صامت من بطل الرواية موجه لصاحب السيرك، ويبدو فيه الراوي قد اكتشف حقيقة معينة ويحاول الترفع عليها كشرط للتحرر، كما نقرأ: "أهذه حقيقتك يا صاحب السيرك، أردت القضاء علي دون أن تحمل نفسك هذه الفعلة الشنعاء، ألقيت بي في أتون المعركة مع سبع أهوج وأنت تُقدّر أنه سيمزقني شر ممزق، ولم تتوقع أني أستطيع أن أنتصر، وليس النصر بالنسبة إلي إلا الإبقاء على الحياة. لسوف تسعى أن تسحب هذا النصر إليك، وتزعم أن الحمار حمارك، ولكني أعرف طويتك. ولم أعد منذ اليوم حمارك، روضت الأسد والفيل والقرد، وتخلصت منها بسهولة وأردت التخلص مني بذكاء يعفيك من المسؤولية. ها أنا لا أزال حيا يا صاحب السيرك، ها أنا حر يا صاحب السيرك.. حرّ رغم جراحي ورغم ندوبي»[12].

تحمل الصورة أيضًا تمردًا صامتًا ونشوة عاطفية غاضبة حول الحرية والتحرر. الجروح والندوب لا تهم حسب احساس الصورة وانما الحرية التي تذكر مرتين بكلمة "حر". يعزز هذا الاتجاه الليبرالي لهذه اللقطة السردية وللنص ككل، وهو اتجاه يأتي في مقابل العمل الجبري والظلم والاستغلال وسرقة الإنجاز والتضحية بالآخر والتهرب من المسؤولية. لقد تم التعامل مع الحقيقة في "سيرة حمار" بناءً على فكرة أن الإنسان يتعلم من أجل "التحرر"، وظهر ذلك في عدة صور كما في صورة الرحيل، وكذلك من خلال حوارات الرجل الحكيم وفي جميع فصول مغامرات أسنوس مما يعزز الطابع التربوي للنص وتأثيرات الحكمة على الاندفاع وحماسة الشباب. لكن السياق يبرز بشكل متشائم لا يدركه سوى قلة من الناس، فنراه يقول: «ألا ما أظلم الإنسان وما أعماه عن الحق، فهو لا يحكم إلا بالهوى، عدا فئة قليلة، وشأن هذه الفئة أن تبتلى وتُسام الخسف»[13].

إن المبدأ الذي يقوم عليه هذا السرد، وهو أن الإنسان يتعلم "التحرر"، كما تعلم أسنوس من مغامراته ومن حوارات الرجل الحكيم، كما تعلم من المصارع. من هزم الأسد بعقله وفكره، وهزم الأسد رغم قوته، ثم تحرر، وشرع في رحلة التوبة إلى حياته البشرية الطبيعية، وفي خطبة الراوي البطل التي ألقاها من وعيه الخارجي، نتذوق هذا المعنى الرائع حيث يقول: "ساكنة أليلي وكل أرجاء موريتانيا الطنجية، بل كل بقعة من أرض الأمازيغ"

لقد طوفت أرجاء عدة لأقول لكم إخوتي إنا تأثرنا بحضارات عدة مثلما أثرنا فيها، وأن لا خطر يتهدد شخصيتنا العميقة من خلال هذا التفاعل. إن الخطر كل الخطر أن نختزل تلك الشخصية في جانب ونصدف عن التجربة الإنسانية التي أتيحت لنا من الحضارة الفرعونية فالإغريقية والرومانية وقبلها الفينيقية. إخوتي إننا لسنا طارئين على هذا الرصيد الإنساني، لسنا متسولين، هو جزء منا ونحن جزء منه...» [14]، لتكون بذلك الحرية حسب حسن أوريد بمثابة الفعل الذي شارك فيه الجميع في علاقة جدلية متبادلة.

ونراه يقول أيضا: "... لذلك صدفت عن ذلك كله لأقول لكم الحقيقة، وقد تكون مرة، وهي أن أذكركم بما أنتم"[15]. وقد تجلت حرية أذربال-بطل الرواية- في تمرده واحتجاجه على الباطل في خطبة الحاكم وخطاب النعي المجهول. أدركنا أن الوعد بقول الحقيقة جاء هذه المرة من التجربة والملاحظة، وليس من الأحلام الطوباوية النظرية فالحرية الحقيقة هي التي تأتي بعد المعاناة والمكابدة.

هذا النهج القائم على الحواس والملاحظة يتجلى في سياق النص من خلال الكلمات التي تحتوي على الكثير من النقد للحواس بنفس الطريقة الديكارتية خاصة حينما يقول الراوي: "كنت أصيخ السمع وقد غدا سمعي مرهفا، وألقي بصري وقد عاد حديدا"[16].

ويتضمن هذا الخطاب تحريضا على الحرية من خلال تلخيص حواسه وملاحظته من كل الاكراهات التي تعيق مرحلة اعلان الحرية والانعتاق، بالإضافة إلى الحدس العقلي الذي تجلت ملامحه من خلال مناقشة وانتقاد الراوي للكذب والسير الرسمية الكاذبة، وإشاعة الأكاذيب، وتفسير الدوافع والأهداف. ونراه أيضاً يقول: "نظرت في مرآة، فإذا أنا حمار كامل الأوصاف، لا أختلف عن الحمير إلا في شيء أضحى مصدر معاناتي هو قدرتي على التفكير، إذ كان الأمر سيهون لو حرمت التفكير وعشت وسط الحمير لا أختلف عنها في شيء، والحال أني سوف أعيش وسط الحمير.. حمار يأتي ما تأتي ويحمل من

الأثقال ما تحمل، ويختلف عنها في شيء، قدرته على التفكير، ويؤلمه ألا يحسن التعبير عما يجيش به صدره من أحاسيس ويمتلئ به من رؤى ".

لقد بدأ حسن أوريد روايته بهذا الحوار، وهو بمثابة اشارة الى احتجاج البطل على عدم قدرته على التفكير الحر وعدم تمتعه بحرية التعبير عن المشاعر التي تعتريه. حيث يعبر عن ذلك قائلا:" يريدونني حمارا مثلهم أكتفي بالأكل وبالنزو تعبت ويئست وأظلمت الدنيا في عيني"[17].

كما نجد أذربال يدعو إلى الحرية، ويتمرد على واقعه. وبناء على هذا القول نرى أن نظرية الوجود لأذربال هي الوجود الإنساني من حيث المواصفات وليس التصميم، لأنه بنى وسائله برؤية ذاتية خالصة تجعل من التفكير الحر النقدي وسيلة لضمان الوجود وتقبل قساوته واغترابه، باعتباره سيدا ومسيطرا في هذا البناء الإبداعي، إنه مصدر للوجود بعيدا عن العدم والفراغ، يحمل وجوده في ذاته وعيا خالصا بالحرية والانعتاق، وفي هذا الإطار يقول: "أما كان جريا أنه أظل برفقة دونا حيوانا معززا مكرما، تحدب عليه وتعطف يأتيه طعامه رغدا بلا كلل ماذا جنيت من هذا الخيال الصعب." [18]

استطاع حسن أوريد، بهذا الاختيار، أن يقضي على ماضيه (الحيواني) ليكون إنسانًا بالضرورة وبحكم التعريف، إن الحرية حسب السارد هي تجاوز التخبط بين الواقع والخيال، بين السلوك الإنساني الطبيعي والتحول الحيواني الذي تسببه عملية السقوط الحر في الغرائز ومبادئ اللذة اللامتناهية الجارفة، بين الأمان وقساوة الاغتراب وفي هذا الإطار يقول: «كانت نفسي في حالة غريبة تريد أن تمسك بتلابيب الحياة كلها. تريد ان توقف كل لحظه من الزمن.. لم أكن احفل من ذي قبل بهذا الذي تموج به الحياة. كنت انظر اليه بازدراء. كنت احسبها أخذ المعارف وسعي لمتع، وجريا وراء حظوة، ولم أقدر أن تكون سفرا في الذات. سفري بداخل نفسي هو الذي فتح عيني على الحياة وغناها.. "[19]

إن الحرية المنشودة هي الخروج من الحيوانية إلى عوالم الإنسانية، وذلك من أجل فهم الآخر البشري باعتباره كائنا فريدا يتجاوز النوع المرتبط بالجنس فقط، بل هو الوعي والمعرفة والوجود والعقل والسعي الكامل لجعل الآخر كائنًا بشريًا قادرا على تحويل الفشل والأزمات الى نجاح وابداع، على أساس أن كينونته كانت من أجل الجماعة وليس من أجل العدم بتعبير وجودية جون بول سارتر.

ثانياً: رواية "الموتشو":

أمين كوهين، هو الأكثر قدرة على حمل صخرة الفكرة المركزية للرواية، ومحاولة إيصالها إلى ذروتها، يتعثر أحيانًا، وتسقطت منه صخرة العبء الذي كان يحمله أحيانا أخرى، لكن القدرة على التحمل بطريقة "سيزيف" جعلته قادرًا على تحمل العبء مرة أخرى في محاولة للوصول إلى الهدف المستحيل، حيث يحمل ملامح جيل جديد يتخيل ربيعًا عربيًا واعدا، لكن أحلامه تتبخر، بعد توالي الهزائم وتعددها، وهو في حقيقة الأمر امتداد لجيل بنيس الذي أوصله اليأس الى غيبوبة دائمة تشبه كثيرا الغيبوبة التي اصابت المجمعات العربية.

كان أمين يعمل في الصحافة، لكنه لم يستطع الكشف عن أفكاره اليسارية، بسبب اخلافه الفكري مع المنصة الفكرية والعقائدية لتلك الصحيفة ذات التوجهات والميول الإسلامية. لم تنشر مقالاته الأخيرة، ولم يكتف بذلك، بل تم فصله عن عمله، ومصدر رزقه، ونافذته للتعبير عن آرائه. حيث نجده يتحاور مع رئيس التحرير بعد رفض نشر مقالاته حيث يقول:

"-السي مصطفى ما شفتش المقال ديالي في الملف، هاذي ماشي خدمة.

-بصراحة ما عجبش المدير.

-هذاك الشيء اللي كتبت «من الحكم نبدأ» قاسح قاسح بزاف.

-إلا بقينا نحكو على الدبرة يقطعوا علينا الإعلانات.

-كيف أش؟ الجريدة مقالة ولا منبر؟

-أيش إنه دور الصحافة إلا ما قالت ذاك الشي اللي خاصو يتقال؟"[20]

يؤمن أمين بالحرية والعدالة وحقوق الإنسان. مدمن على القراءة بالفرنسية والعربية. كما أنه مشبع بالأفكار العالمية التي تتجاوز المعتقدات من أوغسطين إلى دوبريه وسارتر وغيرهما من فلاسفة التنوير.

أما الشخصية المحورية الثانية فهي الدكتورة نعيمة بلحاج التي أشرفت على رعاية ومراقبة حالة بنيس الصحية، ولأن أمين كان يزور غرفته يوميًا في المستشفى، فقد تعمقت علاقته بها، ويظهر السياق تحررها. وارتباطها بعلاقات عاطفية متعددة، بما في ذلك علاقتها بالشخصية الغامضة التي أرسلت رسالة قديمة وجدها أمين في كتاب لـ ريجيس دوبريه، والذي اقترضه منها.

وكانت نعيمة متحررة مختبئة تحت حجاب الالتزام الديني، ونكتشف في النهاية أنها من أصل يهودي، تتنازل عن كل التزاماتها وتهاجر إلى إسرائيل، وبالتالي لا يشعر القارئ بواقعية هذه الشخصية التي لا الوقوف في وجه اختبار رواية القصص المستخرجة من الواقع. ومع ذلك، يحق للمؤلف بناء شخصياته لتتناسب مع الأفكار التي يحاول تقديمها. كان حجابها ظاهريا، لكن روحها وجوهرها أشبع بالحرية التامة من كل القيود. دخلها أمين جسديا، لكنه لم يخترقها روحيا. وهذا ما صرح به السارد قائلا: «ولكنه لا يشعر أنه نفذ إليها»[21] .

تنصت على قراءاتها وعلى رسالة الرجل المجهول لها، الأمر الذي جعله أكثر ارتباكًا وغموضًا. إلى أن قدمت اعترافها له بعد الرحلة إلى قرية "الكرامة"، اعترفت بأنها يهودية وأن المجهول راهب. لقد مارست معه الجنس ليس بدافع الشهوة، بل بدافع الحب. أحب فكرة أودعت فيه.

أحب فكرة أودعها فيها، وهناك حوار يتحدث فيها أمين مع نعيمة يسألها عن حبيبها الأول:

"- هل يمكن أن أعرف المتحدث؟

-الماضي الذي لا يفيدك في شيء.

-قولي لي (أفصحي).

-صديقي القديم.

-هل مازلت تحبينه.

-لم ترد نعيمة."[22]

كانت قد تعلمت مما عانته أمها في زواج بمسلم أدى إلى القطيعة مع أسرتها. وكان حجابها رد فعل وتَقيَّة، ورد في اعترافاتها: "كنا نخفي الحقيقة، لأن اليهود جماع المثالب، وكنا متدينين كي لا نثير الشبهة»[23].

إن مفهوم الحرية الذي تتبناه رواية الموتشو هي محاولة للتحرر من لعنة الجغرافية أي الجوار مع أوروبا والغرب بشكل عام ومخلفات الصراع الأيديولوجي المزمن بين الإسلام والمسيحية بلغة حسن أوريد، إن لعنة عدم الاستقلالية في اتخاذ القرار – حسب السارد –والتي يعاني منها العالم العربي تقف عائقا أبستمولوجيا أمام تحقيق الحرية الكاملة من الفكرة مرورا بخطة وزمن التنفيذ ووصولا الى التحقق الواقعي لعملية التحرر الشامل الذي ينعكس على مختلف المجالات الواقعية للإنسان.

ثالثاً: رواية "زينة الدنيا":

الرواية محفوفة بقضايا حقوق الإنسان، والقيم، والعقد الاجتماعي، والفكر، وطبيعة الاستبداد، واللغة، والهوية، ومكانة العالم والفقيه في بنية السلطة "تهمني البنية التي أنجبت هؤلاء"[24] ، والجمال والنخبة، شؤون الجنس والمحبة، الأديان والتعايش، الدين والسياسة، حرية الفكر والحروب.

وتتجلى حرية الفكر في الرواية بشكل واضح حيث يقول السارد:": "ألك أفكار يا مغيرة؟"، يجيب المغيرة "كل الناس لديها أفكار، ولكن لا يتاح لها التعبير عنها، وقد يتاح أن تعبر عنها ولا يستمع إليها، لأنها لا يعترف بها، من المهم جدا الاعتراف بالإنسان، كي يعطي أحسن ما عنده، ويصبح فاعلا في جماعة". يواصل الفتى البربري إيغموراسن "حتى البغايا؟"، يرد المغيرة "البغايا لم يخترن وضعهن، ولذلك ينبغي التجني على الظروف التي دفعتهن إلى البغاء"، ويواصل الفتى في استهزاء وتعجب "حتى اليهود؟"، يجيب المغيرة "حتى اليهود"، "حتى الزنوج"، "نعم"، "حتى العرب"، "نعم، حتى العرب". هكذا ينتصر الكاتب لحق الجميع في ممارسة الفكر، وقوله والتعبير عنه"[25] .

يتضح لنا ان راوي "زينة الدنيا" ملم بتفاصيل الشخصيات، على الرغم من أنه يعدد وجهات النظر المركزة، ويعطي الحرية في عرض وجهات النظر حسب طبيعة الشخصيات الروائية، رغم ان موقعه في أعلى النص، صادر عن رؤية سردية بشرية لا تعتمد على مبادئ مسبقة، أو تمثيلات عقلية، في تحديد الآخرين، بل هو الراوي المتجدد في حل الاصطفاف، وهي قدرة نقدية ويقظة سرديّة نادرًا ما تتطابق مع الخيال العربي، تمامًا كما يستخدم هذا الراوي المتمكن أسلوب التشويق، وهو يعرض الحدث، أو المشهد فلا يكشف الممثل إلا في ذروة إثارة القارئ، ويجعل الإعلان والتعريف وقفة للمقطع السردي.

كانت هناك شخصيات مركبة، كما وظفت شخصيات تتخطى الحدود الوصفية، أو المواعيد الجسدية، وأبرز شاهد على ذلك الكاتب زيري الذي كان في خدمة الخليفة الحكم، ثم اتخذ شخصية فقيه غريب الأطوار، ثم حلاقًا، ثم غبيًا يُدعى المغيرة يعمل في تنور، ثم ظهر في وصف شخص اسمه ابن صمده يعمل في خدمة الحاكم ابن عامر في أيام الخليفة هشام، وحمله. شخصية هارون عندما اعتاد الذهاب إلى حانة يهودية للناس. إذن، نحن مع اختيار ات مركبة للروائي، الذي يقول عنه أوريد في أحد المقاطع: "أنا لسان حال التاريخ، تنكرت في صور شتى" [26]

وتمظهرت الحرية في تعدد الأديان والأجناس والأطياف التي أثثت الأندلس خلال هذه المرحلة التاريخية الحاسمة وإقامة الطقوس والشعائر بكل حرية، ومن ذلك نرى: "كان طريفًا أن تؤدي هؤلاء النسوة صلواتهن كل واحدة في دينها، مباركة وفق طقوس الإسلام، ومارية وفق المسيحية، وراحيل حسب ما تدعو إليه اليهودية، لا يمنعهن ذلك وقد أدّين فريضتهن في العيش المشترك والتوادد والتعاون"[27].

رابعاً: رواية "رواء مكة":

عطفا على ما سبق فإن الحرية تتجلى بوضوح في رواء مكة من خلال حرية الفكر والعقيدة، حيث شكل هذا العمل الروائي نوعا من التحرر الذاتي للسارد من الماضي نحو الاقبال على الله في رحلة حج ماتعة ومشوقة، ففي مرحلة الشباب والاندفاع كان الراوي مبتعدًا عن الطريق السليم بسبب التأثر المبالغ فيه بالغرب رغم كونه قد فتح عينيه على أسرة متدينة ومحافظة في قريته الأمازيغية جنوب المغرب الشرقي، لكن نقطة التحول كانت بسبب وعكة صحية مفاجئة جعلته يعيد النظر في مسار حياته بشكل عام ، فوعد نفسه أنه إذا شفاه الله، فسوف يقوم بالحج إلى بيت الله الحرام، مما جعل هذا الوعد الدافع القوي الذي نحو أداء فريضة الحج وفي هذا الاطار نجده يصرح قائلا: "خواطر شتى تجاذبني وأنا أتوجه من مكناس، حيث كنت أقيم، إلى مطار الدار البيضاء لأداء فريضة الحج. هل قدرت يوما أني سأشد الرحال إلى الديار المقدسة وقد نفرت عن ما كنت أراه رسيس تربية ومخلفات ثقافة.. هل يستقيم هذا العزم وقد نبذت ماضي ورائي ظهريا؟ وهل هو حج أم استكشاف؟ وأي استكشاف يكون؟ ألم أدفع كل الدعوات التي تلقيتها لأداء الحج؟) ... (كنت أرى في الحج وقد تواترت حوادث الازدحام والحرائق والضحايا مخاطرة...ثم ما يفيد أن يطوف المرء وسط الزحام ويرشق نصبا بالحجارة؟ ... فأي رحلة هذه التي سلكت، من رافض للحج، متندر بشؤونه، إلى مقدم عليه؟ وهل هي أوبة إلى ذلك الحضن الذي احتضنني وأنا بعد صغير، أم هو استكشاف طقوس وعبادة ووقوف على تجمع ضخم هائل ليس إلا؟ هل هي مصالحة مع الإسلام، أم هي قطيعة نهائية تأخذ شكل سفر للوقوف على وجه من وجوهه؟."[28]

ومن مظاهر تبني الرواية لمفهوم الحرية عرضه للقضية الفلسطينية والاستبداد الذي يحدث فيها واضطهاد الإسرائيليين لهم، حيث نصب الرواي نفسه مدافعا قويا عن حرية المواطن الفلسطيني وحقه المشروع في وطن قوي عاصمته الأبدية القدس الشريف وهنا يصرح قائلا:" ثم استحضرت تلك اللحظة التي قطعت فيها النذر، أذكرها بكل ملابساتها...يونيو. 2006 كان يوم جمعة وقد أنهيت أشغالي ولم يبق إلا أن أحضر معرضا للمنتوجات التقليدية لجمعية فلسطينية من غزة حلت بالمغرب واستضافتها بمكناس مساعدة لها على الحصار المضروب على المدينة ساكنها...ثم شاهدنا فيلما وثائقيا يعرض للمعاناة التي يتعرض لها الفلسطينيون، وكان منها صورة طفل تعرض للضرب المبرح من طرف جندي إسرائيلي، فغلبتني دموعي، ثم اعتذرت للحضور.."[29].

إن السيرة الذهنية التي جسدها حسن أوريد تمثل لتحرر واقعي للذات من المغالطات التي يمكن أن تحجب الحقائق وتشوهها في مراحل ما من العمر، فالمبالغة في تمجيد الغرب وجعله النموذج الوحيد للعقل والعاطفة لابد أن ينتهي الى الانفصال عن تعاليم الشخصية العربية الأمازيغية المسلمة الخالصة المتوازنة. وهنا يقول:" أتملى حولي ممن يملأ قلوبهم الإيمان، فأعجب لسمتهم وسكينتهم. هل يمكن أن تصرف الحياة بالعقل وحده؟ هل حياة الإنسان مقاولة تخضع لمنطق الربح والخسارة والحساب الدقيق.."[30]، "وما جدوى أن أنفر إلى مكة حاجا وأزور المدينة إن لم أتحول؟"[31]"، ومسجد صغير في حي تيمدقين الشعبي بإفران، والبرد والثلج، والزمن بداية الثمانينات والساعة العشاءان وعمري ال يربو على العشرين إلا قليلا "[32]

فتحقيق الذات يتم من خلال تحريرها من قوة وهيمنة الثقافة الغربية ، نحو الدفاع عن الذات المتوازنة التي لا تقصي بشكل متطرف وعنصري ولا تندمج حد الانصهار الأعمى الذي يلغي التميز والتفرد : "كنت خارجا من المسجد النبوي

بعد صلاة الفجر وما أن بلغت ساحة حتى ابتدرني شاب وسيم يلبس لباسا عصريا وهو ما أثارني في حمى المسجد وفي موسم الحج وإذا هو يحدثني بلسان أمازيغي-: يا ابن عشيرتنا ، أريد أن أتحدث إليك(أوينخ، ريخ أذاك ساولغ...)كان مما أذكره من حديثه المسترسل الطويل ما أثبته هاهنا:ـ لقد كنت فخرنا حين حملت مشعل لغتنا الأمازيغية تنافح عنها، ولقد كنت من أوعى الناس أن اللغة ليست إلا جانب (هكذا) من معركتنا لنحقق ذاتيتنا، ولننفصل عن هيمنة العنصر العربي وغطرسته...كنت أقرأ كتاباتك بشغف وكنت أراك حاملا مشعل لصراع جيل ولذلك لم أفهم أن تأتي إلى هنا لتؤدي فريضة الحج[33]"... إذا كانت رواية سيرة حمار قد جسدت صراعا لتحقيق الحرية الجسدية بعد المسخ فإن رواية رواء مكة هي تطهير نفسي وروحي وتحرر من شوائب الماضي المتعلق بالغرب، إن رواء مكة تحرر للجسد والنفس والعقل من التعلق بغير الله أليس في التخلي تجلي؟

خامساً: رواية" الموريسكي ":

استعان حسن أوريد بالعديد من الشخصيات من مواقع مختلفة ومواقف مختلفة للتعبير عن المعاناة والاضطهاد الذي عانى منه رجل الموريسكي، حيث اضطر لتغيير معتقداته ومنع من ممارسة الطقوس والعادات والتقاليد، بالإضافة إلى النفي القسري والإجباري إلى الانفصال. أماكن العالم بعيدة عن الوطن الأصلي، دون أن ننسى القتل والحرق والقذف في البحر. تقول إحدى الشخصيات، وهي تصف وتتحدث عن جانب من جوانب الاضطهاد. وفي هذا الاطار يقول: " فرض علينا أن نغير عقيدتنا الدينية، هكذا صرنا ملزمين بإظهار اعتناقنا للدين المسيحي وأن نمارس ديننا خفية لكي نبقى على قيد الحياة"، كما يصور في مشهد آخر فظاعة القتل التي يتعرض لها كل المخالفين لتوجه الكنيسة والسلطة الحاكمة حيث يقول:" أزندت النار ووضعت قلنسوات san benito، وهي قبعات صفراء، على رؤوس المحكوم عليهما، ثم ألقيا في النار".[34]

إن الرواية تبنت مفهوم الحرية في الماضي كما تمناها المورسكي المظلوم والمضطهد ولكن في الحقيقة هي دعوة في الحاضر والمستقبل لتحرير الإنسان من مختلف القيود التي تعيق قدرات عقله على التفكير والابداع اللامتناهي .ومن الحقائق التي تكشف حقيقة محاكم التفتيش في تعاملها مع الموريسكيين نجد ما يلي: "لقد أمعنوا في افتتاننا وفي تكليفنا ما لا طاقة لنا به من الأشغال الشاقة، ثم دفعونا لنغير أزيائنا..كانوا يدخلون بيوتنا بدون استئذان ويلوثون شرفنا ويلحقون بنا العار"[35].

"كان للبلاط معايير أخرى في التعامل ولكنها كانت معهودة لدي، فهي تذكرني بالكنيسة أو بالأحرى محاكم التفتيش، فمحاكم التفتيش حالة نفسية وليست المحرقة سوى حلقة من سلسلة، محاكم التفتيش هي الخوف، هي الوشاية، هي الكذب، هي تشويه الحقائق، هي الإرجاف..."[36]

كل هذه الصور والمشاهد التي صورها الروائي حسن أوريد في روايته بدقة وتفصيل تشير إلى نية خفية لحكام إسبانيا، في ذلك الوقت، لاستئصال كل ما يرمز إلى الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث. أسندت محاكم التفتيش هذه المهمة إلى الكنيسة الكاثوليكية لتوفير غطاء ديني. من جهة، بينما شرعت السلطات الحاكمة ذلك بمبررات قانونية، من أجل التضييق على حرية ممارسة المعتقد. وفي هذا الإطار نجد شخصية محورية أخرى في الرواية هي شخصية (أنتاتي) التي تمثل للتحرر الهوياتي، ويمكن الاستشهاد بحوار بين أنتاتي والشاوي:

—أما زلت أيها الأمازيغي ترفض اعتمار الطربوش رغم أنها تعليمات مولانا السلطان؟

– اعتمر أجدادي دوما العمامة. الأتراك ليس أجدادي، رد أنتاتي.

– ومتى كان أجدادك مرجعا؟

– ومتى كان أجدادك كذلك إن كنت تعرفهم؟

– كنتم لا تسكنون إلا المغارات، حين..

– .. حين أوقفتم دورة حضارتنا. إنك لا تعرف التاريخ يا الشاوي.

– أنت جاحد، بفضل سيدي تعلمت العربية وصار بمقدورك التخاطب بلغة متحضرة.

– روحي بقيت أمازيغية.

– إنكم خونة.

– ليس هناك خيانة أكبر من انتزاع الأرض من مالكيها، وطمس ذاكراتهم بالأكاذيب والأراجيف.

– أنتم تستحقون الإبادة.

– أعرف الحب الذي تكنونه لنا، لكننا لن نمتعكم بمشهد اختفائنا..."[37]

بالإضافة إلى ذلك نجد مشهدًا آخر يشير إلى عنصرية كبيرة ونظرة مريبة تجاه الأمازيغ، حيث يتهمون بالتمرد، بسبب حريتهم، وهذا واضح من خلال الحوار الاتي الذي يدور بين دوغا وشهاب الدين:

– "هل لديك أخبار عن أنتاتي؟

– لا أخبار لدي.

– يا له من رجل! لعله الآن على رأس بعض القبائل يقود تمردا.

– أتعتقد ذلك؟

– الأمازيغ لا يحسنون إلا هذا. كان أنتاتي رجل فعل أراد السلطان أن يبقيه تحت وصايته، والآن، وهو حر، لابد أن يكون على رأس حركة تمرد. فالتمرد من طبعهم.."[38]

ومقابل ذلك، يعطي شهاب الدين بطل الرواية صورة إيجابية عن الهوية الأمازيغية، مقدما إياه كشخص متسامح يقبل الآخر ويؤمن بحرية الغير، فهو يحب المعرفة والفكر ويؤمن بالاختلاف، يطرح الأسئلة متبنيا منهجا شكيا ديكارتيا لعرض حقائق السلطان وسياساتهم. شهاب الدين يقول عن صديقه أنتاتي إنه أمازيغي فظ، كما يصفه في مكان آخر قائلا: "كان زميلي مثقفا، كامل الرجولة، ومتكتما... كان يقضي سحابة يومه قارئا، ولم يكن يخالط إلا شابا واحدا".[39]

كان الشخص الأمازيغي يعيش مظهراً من مظاهر الاضطهاد الثقافي والوجودي، ويعتبر هذا مدخلا للقضاء على انتمائه الأمازيغي فيقول شهاب الدين عن أنتاتي: "كان أنتاتي يرفض أن ينادى باسمه كما جرت العادة، هنتاتي، بهاء في مستهل اسمه، هاء فرضتها قواعد الإبدال والإعلال في اللغة العربية"[40].

حيث يعتبر ذلك مدخلا للقضاء على انتمائه الأمازيغي، وبالتالي تجريده من هويته الأمازيغية والحث على الاندماج في الهوية العربية. وهناك صور في الرواية تدعو إلى حرية الانفتاح على بقية الأديان باعتبارها تدعوا للحرية وحب الاخر بغض النظر عن الاختلاف في اللون والجنس والعقيدة: "في أرض الإسلام ليس كل شيء جميلا، وفي أرض المسيحية ليس كل

شيء خاطئا. فالنظرة الصائبة تتأتى عن طريق العقل، ولكن العقل وحده لا يكفي. هناك الحب خصوصا، حب الآخر أو الجار لتتأتى معرفته"[41]، كما ان أغلال العقل المختلفة يمكن أن تتلاشى بقوة الحب الذي يجمع بين البشرية جمعاء. وهنا يؤكد الراوي هذه الحقيقة قائلا "أنتاتي وأوجيني. أدين للأول بإعمال العقل الذي سحب على العالم ما يتمسح به من أساطير وأوهام وأراني حقيقة ما يجري أمامي، وأدين للثانية بالحب الذي رتق عالما خلا من الأساطير ومنحه معنى"[42]

وفي هذه الصورة، ينبثق نمو وعي البطل بوضوح من الرؤية الذهنية للواقع إلى حرية الانفتاح على كلية النفس، من خلال قيمة الحب التي جسدها الكاتب كخلاص للجميع من العنصرية والكراهية ومختلف مظاهر الصراع.

الخاتمة:

انطلاقا من هذه الدراسة يمكن الاحتفاظ بالنتائج الآتية:

1. ان هذه الحرية ليست هبة من أحد، لكنها حق طبيعي للإنسان مرتبط. بروحه المبنية على الرغبة في التحرر الدائم، ومختومة في رفض الذل والانكسار، فهو حر منذ ولادته.
2. الحرية في روايات حسن أوريد هي إثبات حقيقة واضحة مفادها قدرة الفرد على تحقيق الحرية. ويعرّفها حسن أوريد بشكل عام بأنها الشيء الذي لا يخضع للإكراه ويعمل دون قيود.
3. تظهر الحرية في عدة أشكال في رواية "سيرة حمار"، حيث تم التعامل مع حقيقة الحرية في هذه الرواية بناءً على فكرة أن الإنسان الذي يجب أن يتعلم ليتحرر نفسيا وعقليا وجسديا من كل الشهوات التي تسقط من خاصية الإنسان السامية التي تميزه كتكريم إلهي أصيل.
4. أما رواية "الموتشو"، فتجسد شخصية أمين الكوهين الذي يؤمن بالحرية والعدالة وحقوق الإنسان، من خلال ادمانه على القراءة باللغتين الفرنسية والعربية، مما جعله مشبعا بالأفكار الكونية المتسامحة والتي تنهل من الفكر التحرري من أوغسطين إلى دوبريه وسارتر وغيرهما من فلاسفة التنوير.
5. في حين نجد "زينة الدنيا"، رواية محفوفة بقضايا حقوق الإنسان، والقيم، والعقد الاجتماعي، والفكر، وطبيعة الاستبداد، واللغة، والهوية، ومكانة العالم والفقيه في بنية القوة، والجمال، والنخبة، والجنس، والعلاقات الرومانسية. والدين والسياسة وحرية الفكر والحروب.
6. ونصبت رواية "رواء مكة" نفسها كآلية فكرية للتحرر الروحي والنفسي من خلال جعل رحلة الحج الحجازية مناسبة لتحقيق الحرية، حرية العقيدة وحرية الفكر، ليكون بذلك الحج تحررا من الدنس الفكري والاعجاب المرضي بالغرب.
7. وفي الأخير، استعان حسن أوريد في رواية الموريسكي بالعديد من الشخصيات من مختلف المواقع والمواقف للتعبير عن المعاناة والاضطهاد الذي عانى منه الرجل الموريسكي، حيث اضطر لتغيير العقيدة ومنع من ممارسة الطقوس والعادات والتقاليد، لتكون الرواية مرافعة ودفاعا عن حرية هذه الطبقة المضطهدة. كما شكل هذا النص السردي قراءة نقدية لمفهوم الحرية والمضايقات المستمرة لحرية التعبير والمعتقد خلال المرحلة المعاصرة.

الهوامش:

[1] محمد رشيد رضا وقد ورد ضمن مقالة له بعنوان (الحرية واستقلال الفكر)، نقلها مؤلفو كتاب في قضية الحرية، ص ص172-180 عن المنار، مج 12، مصر، 1327هـ، ص 113-117.

[2] عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية والدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1981، ج2، ص2.

[3] الحرية في الإسلام للخضر حسين ص 15، وانظر المعجم الوسيط، مجمع اللغة 165/1.

[4] المصباح المنير، مادة (حر)، ص 128.

[5] ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3 -1993 مادة (حرر).

[6] انظر: المطلع على أبواب المقنع، ص 314.

[7] الرسالة للقشيري، ص 99.

[8] التعريفات للجرجاني، ص 116 ت: الأبياري، وانظر: اللمع للسراج، ص 249، ولطائف الإعلام في إشارات أهل الملام للكاشاني (408/1-409).

[9] أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص (255، 256، 268).

[10] نفسه، ص 268.

[11] المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ص 71.

[12] حسن أوريد، سيرة حمار، منشورات دار الأمان- الرباط، الطبعة 3-2015، ص 104.

[13] نفسه، ص 64.

[14] نفسه، ص 37.

[15] سيرة حمار، ص 39.

[16] نفسه، ص 24.

[17] سيرة حمار، ص 106.

[18] نفسه، ص 114.

[19] نفسه، ص 121.

[20] الموتشو، ص 34.

[21] حسن أوريد، الموتشو (رواية)، منشورات المتوسط- إيطاليا، ط1- ص 278.

[22] الموتشو، ص 261.

[23] نفسه، ص 378.

[24]حسن أوريد، "زينة الدنيا"، عن المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 2021، ص 99.

[25] زينة الدنيا، ص: 336 - 337.

[26] زينة الدنيا، ص 627.

[27] نفسه، ص 136.

[28] حسن أوريد، رواء مكة، ص 13-14.

[29] رواء مكة، ص 16.

[30]نفسه، ص 17.

[31]نفسه، ص 19.

[32] رواء مكة، ص 20.

[33] رواء مكة، ص 135-136.

[34] الموريسكي، ص 92.

[35] نفسه، ص 94.

[36] نفسه، ص95.

[37] نفسه، ص 80.

[38] المرجع السابق، ص 99.

[39] نفسه، ص 120

[40] الموريسكي، ص 122.

[41] نفسه، ص 144.

[42] الموريسكي ص 215.